دور الصوفية في الدعوة
الشيخ عبد القادر الجيلاني أنموذجا

د . نورالدين طوابة
الجامعة الإفريقية –أدرار-الجزائر-

تمهيد:

لم يحدثنا تاريخ الفكر الإسلامي عن معارك أعنف ولا أقسى من تلك المعارك التي دارت رحاها حول التصوف ورجاله، فقد هوجموا هجوما عنيفا متواصلا من رجال الفكر والعلم والفقه، بكل أطيافهم وعلى تعدد مذاهبهم.

وهذه الحرب رغم قسوتها وضراوتها حينا ولينها بعض الشيء أحيانا أخرى، فقد خدمت الفكر الإسلامي خدمات كبرى، تتجلى في هذا التراث الضخم الذي تزخر به مكتبات الفكر الإسلامي عبر العالم أجمع.[1]

وإذا كانت هذه المعارك التي دارت حول الصوفية والتصوف، اتصفت بهذه الصفة من القسوة والعنف فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كان للتصوف والصوفية دور في الدعوة الإسلامية التي انتسبوا إليها؟ وخاصة في مجال الفهم والتطبيق والتبليغ.

[1]._ محاضرات في التصوف: علي معبد فرغلي، مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة 1975، ص 24

ذلك ما أحاول الإجابة عليه من خلال عناصر هذ المقال والتي أتناول فيها شخصية الشيخ عبد القادر الجيلاني كنموذج لدور الصوفية وإسهاماتهم في المجال الدعوي وفق النقاط التالية:

1. مفهوم التصوف

2. التصوف عند الشيخ عبد القادر الجيلاني

3. الشيخ عبد القادر الجيلاني المولد والنشأة

4. مؤلفات الشيخ الجيلاني

5. جهوده في الدعوة

6. تأثيره في المدعوين

7. منهجه في الدعوة

8. الموضوعات الرئيسة في منهجه الدعوي

1- الدعوة إلى العمل وذم البطالة.

2- الدعوة لنصرة السنة ومحاربة الابتداع.

3- نقد المنكرات الشائعة في المجتمع.

4- توجيه الناس ودعوتهم إلى الدين الصحيح.

1. مفهوم التصوّف:

لقد حفلت كتب التصوف ومؤلفات طبقات الصوفية بتعاريف مختلفة للتصوّف والصوفية بل وحتى القضايا التي أثارها المتصوّفة لم تسلم من الخلاف هي أيضا.

و كذا مصطلح الصوفي اختلف الناس حول مصدر هذه التسميّة، والأمر الذي لا خلاف فيه هو أن الخلاف الذي وقع كان انطلاقا من مدى قبول ظاهرة التصوّف في حد ذاتها أو ردّها أصلا وسنعرض بشيء من الإيجاز لمفهوم هذه

الكلمة عند بعض العلماء ممن عرفوا بالتصوّف حتى تتّضح لنا جذور الخلاف وأسبابه .

من أهم مصادر كتب التصوّف التي وصلتنا كتاب " حلية الأولياء وطبقات الأصفياء "لأبي نعيم الأصبهاني[1] والذي اعتبر فيه أن الصوفية هم الصالحون العقلاء الذين ينقاد لهم الصالحون والعقلاء مثلهم ، وهم السالمون من الفتن والموقون من المحن، المبرورة أقسامهم ، وهم الذين صانوا أنفسهم أن تغتر بالدنيا فنظروا إلى باطن العاجلة فرفضوها ، ووضعوا ظاهرا بهجتها وزينتها ، وهم الأتقياء المخلصون، الحاكمون بالعدل، والباذلون للفضل إلى غير ذلك من الأوصاف التي أطلقها أبو نعيم عليهم ، أما كلمة التصوّف عنده فهي مشتقة من الصفاء عند أهل الإشارة، أما أصل كلمة الصوفية عند غيره من العلماء كابن الجوزي مثلا فهو يرى أنها من الأسماء العربية الصميمة وليست اسما دخيلا فهو يرجعه إلى خدم الكعبة الذين انقطعوا للخدمة فيها يقول في ذلك: " أن أول من انفرد به بخدمة الله ـ سبحانه وتعالى ـ عند بيت الله الحرام رجل يقال له صوفة واسمه الغوث بن مر فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ فسمّوا بالصوفية " ويواصل ابن الجوزي ذكر ما وصل إليه علمه عن سبب تسميّة الغوث ابن مر هذا بصوفة فيقول:"إنما سمي الغوث بن مر صوفة لأنه ما كان يعيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلّقن برأسه صوفة ولتجعله ربيط الكعبة ففعلت ، فقيل له صوفة ولولده من بعده"[2]، وقيل أن الصوفية سموا بهذا الاسم نسبة إلى أهل الصفة أو أنه من الصوفانة

---

[1] - أبو نعيم الأصبهاني : الإمام الحافظ الصوفي شيخ الإسلام صاحب الحلية سمع الكثير عن الشيوخ و أجازوه، و روى عنه الكثير مات سنة 430 هـ و له 94 سنة ، سير أعلام النبلاء 17 / 453 .

[2] - تلبيس إبليس : ابن الجوزي دار الجيل بيروت لبنان دت ، ص 223 ، 224 .

وهي بقلة رعناء قصيرة ، فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء ولكن ابن الجوزي لا يسلّم بهذين التعريفين ، ويرجح أن الصوفية يحتمل أنها راجعة إلى صوفة القفا وهي الشعرات النابتة في مؤخره التي يطلقها القوم نسيانا لأنفسهم في التعبّد ، أو إلى كلمة صوف فيقول:" وقال آخرون بل هو منسوب إلى الصوف وهذا يحتمل، والصحيح الأول " [1].

2 ـ التصوف عند الشيخ عبد القادر الجيلاني:

أما الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله فإنه يرى أن التصوّف هو الصفاء من أدران النفس والهوى، والصدق وحسن الخلق مع الخلق، وحتى يبتعد به عن الابتداع فإنه يلزم مريديه بالآداب الشرعية، لأن التصوف عنده ليس أقوالا تقال ولكنه طريقة فيها الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات، والمتصوّف عنده لا ينبغي له أن يخترع لنفسه عبادات وصلوات لم يرد بها الشرع بل عليه الالتزام بالكتاب والسنة التزاما حرفيا[2].

أما شيخ الإسلام ابن تيميه فيرجح أن كلمة صوفي منسوبة إلى لبس الصوف ، لأن هذا هو الحال الظاهر للمتصوّفة أما رأيه فيهم فهو يقف منهم موقفا وسطا فيرى أن منهم المذنب ومنهم التقي وهم على ثلاث طبقات : صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسوم [3].

والذي يمكننا ترجيحه في هذا المقام أن أصل كلمة تصوف أو زهد كمصطلح كلمة حديثة الوجود لم تكن موجودة أيام السلف فقد " كانت النسبة في زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الإيمان والإسلام ، فيقال :

---

1 – المصدر السابق : ص 225 .

2 _الموسوعة الصوفية :عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد القاهرة ، ط 1، سنة 1992 م ص 114.

3 – انظر الموسوعة الصوفية : ص 89 ، 90 ، 114، 390 .

مسلم ومؤمن ، ثم حدث اسم زاهد وعابد ثم نشأ أقوام تعلّقوا بالزهد والتعبّد فتخلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفرّدوا بها ، وأخلاقا تخلّقوا بها " [1].

وحاصل الأمر إذن فإن التصوف كان في بداية الأمر يحمل معنى أخلاقيا ؛ فكان عبارة عن رياضة للنفس ومجاهدة الطبع ، بردّه عن الأخلاق الرذيلة وحمله على الأخلاق الحميدة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والتقوى والورع إلى غير ذلك من الخصال التي تكسب الفلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة ، لكن هذا المعنى الأخلاقي الجليل الذي اتسم به التصوّف لم يستمر على ما كان عليه أوائل القوم ونظرا لتغير الأحوال والأزمان جاء قوم من الأدعياء فلبّس عليهم إبليس وعلى من بعدهم " فصدّهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات " [2]، ومنذ ذلك الحين نزع الصوفية في رياضاتهم إلى عدم الاهتمام بأحكام الشريعة معولين على تطهير القلوب وتزكية النفوس فتعاظم شأنهم في إرشاد الناس وتوجيههم خاصة في القرن السادس الهجري.

فكان أن حدث صراع كبير مع هذا التيار من جانب العلماء كانت نتيجته المناظرة والحوار حينا والتصادم والاقتتال حينا آخر [3].

ومن المعلوم لدينا أن عصر الجيلاني كان من بين العصور التي هبّت فيها رياح الابتداع من كل صوب ، فانقسم الناس بذلك إلى طوائف شتى.

---

[1] - تلبيس إبليس: ابن الجوزي ، ص 223 .

[2] - المصدر السابق : ص 225 .

[3] - أبو الفرج ابن الجوزي ، آراؤه الكلامية و الأخلاقية : آمنة محمد نصير ، دار الشروق ط1 سنة 1987ص 200 .

و لما كان الشيخ عبد القادر داعية ومرشدا له اتصال مباشر بالجماهير فقد ألزم نفسه تربيتهم وتوجيههم إلى طريق الصواب ، وذلك بالتصدي بكل قوّة لمن يقف في وجه الدعوة أو يسهم في إفساد المدعوين وخاصة العوام ، ولعل من أكثر التيارات خطورة على المدعوين ووقوفا في وجه الدعوة تيار أهل الفساد والابتداع، لما كان لهم من تأثير سيئ على كافة طبقات المجتمع وبخاصة العامة الذين التفوا حولهم، نتيجة لما ادعوه وما أظهروه من منكرات وشطحات في أقوالهم وأفعالهم ظنها السذج من العوام من صميم دعوة الإسلام وهديه.

3 ـ الشيخ عبد القادر الجيلاني المولد والنشأة:

هو الشيخ العالم الإمام الزاهد العارف بالله القدوة شيخ الإسلام علم الأولياء محي الدين أبو محمد عبد القادر ابن أبي صالح الجيلي الشهير بالجيلاني الحنبلي،شيخ بغداد .

كنيته أبو محمد ولد بجيلان عام 471هـ – 1077م [1]، في جبل كركوك منتهى نسبه إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما. دخل بغداد سنة 477هـ– 1095م ،

نشأته وطلبه للعلم:

أقبل على العلم بعزيمة كبيرة وحرص على أن يجمع منه أكبر قدر يمكنه يسعفه مستقبلا في الدعوة إلى الله والإسهام في هداية الخلق. وبالرغم من اشتغاله بالعبادة وولعه بها، لم يتوان في تحصيل العلم، والحرص على تحصيله.

قرأ العلوم السائدة في عصره على يد أساتذتها الكبار والمبرزين فيها، وحصلت له فيها اليد الطولى، تفقه الشيخ الجيلاني على مذهب الإمام أحمد رحمه الله على يد أبي سعيد المخرمي وأخذ إجازته منه، وجمع الجيلاني بين الرئاسة الدينية والرئاسة العلمية،. وكان من شيوخه المبرزين أبو الوفاء ابن

---

[1]. سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي،مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان 21 / 439

عقيل، ومحمد بن الحسن الباقلاني، وأبو زكريا التبريزي، وأخذ الطريقة عن الشيخ أبي الخير حماد ابن مسلم الدباس، والخرقة من ابن سعد المبارك .

وكان يتكلم على الناس بمدرسته ويعظهم فانتفعوا به انتفاعا كبيرا . وكان له سمت حسن وصمت،غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان فيه تزهد كثير وله أحوال صالحة ومكاشفات ولأتباعه وأصحابه فيه مقالات ، ويذكرون عنه أقوالا وأفعالا ومكاشفات فيها الكثير من المغالاة ، وقد كان صالحا ورعا.[1]

4 . مؤلفات الشيخ عبد القادر الجيلاني:

صنف الشيخ رحمه الله مصنفات كثيرة في الأصول والفروع وفي أهل الأحوال والحقائق منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط ومنها المصور ونذكر منها التي عرفت :

- إغاثة العارفين وغاية منى الواصلين
- أوراد الجيلاني .
- آداب السلوك والتوصل إلى منازل الملوك
- تحفة المتقين وسبيل العارفين
- جلاء الخاطر في الباطن والظاهر
- حزب الرجاء والانتهاء
- الحزب الكبير
- دعاء البسملة
- الرسالة الغوثية : موجود منها نسخة في مكتبة الأوقاف ببغداد
- رسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلى الله
- الغُنية لطالبي طريق الحق : وهو من أشهر كتب الشيخ في الأخلاق والآداب الإسلامية وهو جزءان .

---

[1] رجال الفكر والدعوة :أبو الحسن الندوي دار القلم ط 1، 2002، 1/ 323.

• معراج لطيف المعاني

• يواقيت الحكم

• سر الأسرار في التصوف : وهو كتاب معروف وتوجد نسخة منه في المكتبة القادرية ببغداد وفي مكتبة جامعة اسطنبول.

• الطريق إلى الله : كتاب عن الخلوة والبيعة والأسماء السبعة.

• رسائل الشيخ عبد القادر : ويقع الكتاب في خمسة عشر رسالة بالفارسية يوجد نسخة في مكتبة جامعة اسطنبول .

• المواهب الرحمانية : ذكره الخوانساي في كتابه روضات الجنات.

• حزب عبد القادر الجيلاني : مخطوط توجد نسخة منه في مكتبة الأوقاف ببغداد.

• تنبيه الغبي إلى رؤية النبي : نسخة مخطوطة بمكتبة الفاتيكان بروما .

• الرد على الرافضة : نسخة مخطوطة في المكتبة القادرية ببغداد .

• وصايا الشيخ عبد القادر : موجود في مكتبة فيض الله الشيخ مراد تحت رقم 251.

• بهجة الأسرار : مواعظ للشيخ جمعها الشيخ نور الدين أبو الحسن علي بن يوسف اللقمي .

• تفسير القرآن الكريم : في مكتبة الشيخ رشيد كرامي في طرابلس الشام.

• الدلائل القادرية .

• الحديقة المصطفوية: مطبوعة بالفارسية والأوردية.

• الحجة البيضاء .

• عمدة الصالحين في ترجمة غنية الصالحين- بالتركية.

• بشائر الخيرات .

• ورد الشيخ عبد القادر الجيلاني.

• كيمياء السعادة لمن أراد الحسنى وزيادة.

• المختصر في علم الدين – نسخة مصورة بالفوتوغراف.

• مجموعة خطب .

• الفتح الرباني والفيض الرحماني: وهو من كتب الشيخ المشهورة وهو عبارة عن مجالس للمريدين في الوعظ والإرشاد.

• فتوح الغيب : وهو عبارة عن مقالات للشيخ في العقائد والإرشاد ويتألف من ثمان وسبعين مقالة.

• الفيوضات الربانية: وهذا الكتاب ليس للشيخ ولكنه يحتوي على الكثير من أوراد وأدعية وأحزاب للشيخ .

وهذه الكتب الأخيرة كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله، فيها أشياء حسنة كما ذكر فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة وبالجملة فقد كان الشيخ من سادات المشايخ [1].

قال عنه ابن الجوزي رحمه الله : وكان شيخه أبو سعيد المخرمي قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأزج، فلما مات أبو سعيد فوضت إلى عبد القادر ، فتكلم على الناس بلسان الوعظ ، وظهر له صيت بالزهد ، وكان له سمت وصمت، وضاقت المدرسة بالناس فكان يجلس عند سور بغداد مستندا إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير فعمرت المدرسة ووسعت، وتعصب في ذلك العوام "[2].

5 ـ جهوده في الدعوة:

أفنى الشيخ حياته كلها في الدعوة والتربية والتعليم ،وقضى من عمره قرابة سبعين عاما يربي ويهذب، ويلح على الناس في عصره وبعد عصره أن

---

[1] البداية والنهاية : ابن كثير ، دار الفكر، 12 / 252

[2] ابن الجوزي : المنتظم ، 10 / 219.

يقبلوا على الله بقلوب ملؤها الثقة فيه، والرغبة فيما عنده ويبين أن ذلك هو طريق السعادة التي لا تزول لذتها عن القلوب، والفرحة التي لا تنغصها أحزان الدنيا ولو اجتمعت على قلب رجل، لأن الإنسان ما دام ملتجئا إلى جناب الله عز وجل لائذا بحماه، مخلصا له وجهه، فإن الشقاوة لا تعرف إلى قلبه سبيلا، ولا تجد إلى نفسه منفذا.

وبرغم الظروف القاسية التي عاش فيها الشيخ، وبرغم البيئة المتهالكة على الدنيا ومغرياتها . التي اكتنفت بغداد . ، فقد استطاع بقوة تأثيره، وعظيم همته، وإخلاصه الذي لم يكن له حد، أن يذلل هذه الظروف لتكون عنوانا له على تبليغ الدعوة البيئة، ولم يفارق الشيخ الحياة إلا بعد أن أرسى قواعد متينة لدعوته حيث ترك من بعده تلاميذ ومريدين حملوا لواء الدعوة وساروا بها في الآفاق وغزوا بها بلادا فنشروا فيها الإسلام، وأعلوا فيها كلمة الحق والدين [1].

وهكذا فقد انتفع من جهود الشيخ عدد كبير من المسلمين، ولما ذاع صيته ضاقت المدرسة بالناس، فكان يجلس في الحديقة ثم وسعت بإضافة المنازل المجاورة لها، وبذل فيها الأغنياء أموالهم، وعمل فيها الفقراء بأنفسهم، وتم بناؤها عام 528هـ-1134م وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية، والإصلاح والإرشاد، والدعوة إلى الله في العراق، وكان ذا هيبة عظيمة حتى قال فيه العلامة الشيخ الفاضل موفق الدين ابن قدامة صاحب المغني في الفقه الحنبلي، لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عنه ولا رأيت أحدا يعظمه الناس من أجل الدين أكثر منه. [2]

---

[1] تقنين الدعوة:محمد السيد الوكيل، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة ط1، 1994، ص 366

[2] سير أعلام النبلاء : الذهبي 21 / 442_

وقالوا فيه أنه أول من نادى بالطرق الصوفية وأسسها ، وفاق أهل زمانه في علوم الدين ووقع له القبول التام، بل وتأثر به العلماء الكبار كابن تيمية وقال عن طريقته؛ إنها الطريق الشرعية الصحيحة [1].

توفي الشيخ عبد القادر عام 561هـ-1165م وله تسعون عاما ودفن بالمدرسة التي كانت له. وعند وفاته، سأله ولده عبد الجبار، ماذا يؤلمك في جسدك؟ فقال: جميع أعضائي تؤلمني إلا قلبي، فما به ألم، وهو صحيح مع الله عز وجل ثم أتاه الموت فكان يقول: استعنت بلا إله إلا الله سبحانه وتعالى وهو الحي الذي لا يموت، ولا يخشى الفوت، سبحان من تعزز بالقدرة، وقهر العباد بالموت لا إله إلا الله محمد رسول الله.[2]

قال الإمام الذهبي : ليس في كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر ، لكن الكثير منها لا يصح، وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة، وبالجملة فالشيخ عبد القادر كبير الشأن وعليه مآخذ في بعض أقواله ودعاويه والله الموعد، وبعض ذلك مكذوب عليه[3].

وككل داعية ومصلح يأمر وينهى ويعلم ويربي فقد كان للشيخ الجيلاني رحمه الله تلاميذ ومريدون تأثروا بفكره ودعوته، كما كان له معارضون في المنهج، فكتب عنه مؤيدوه كما كتب عنه مناوءوه فكتب عنه ابن الجوزي كتاب "ذم عبد القادر".

كما كتب عنه إبراهيم بن علي القادري الشافعي الحلبي نحو(816_880هـ) كتاب "مناقب الشيخ عبد القادر"[4]، وكتاب بهجة الأسرار في مناقب سيدي عبد

---

[1]. الموسوعة الصوفية: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد القاهرة ، ط 1، 1992 ص 114.

[2]. رجال الفكر والدعوة:أبو الحسن الندوي 1/ 335 .

[3]. سير أعلام النبلاء: الذهبي 21 / 450، 451.

[4]_الموسوعة الصوفية : مصدر سابق ص 116 .

القادر، وهو كتاب كبير في ثلاث مجلدات في مناقب الشيخ عبد القادر جمعها من غير تحرير،ولا اهتمام أبو الحسن الشطنوفي المصري، فجاء فيها بالغث والسمين .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: " كان الشيخ عبد القادر رحمه الله في عصره معظماً، يعظمه أكثر مشايخ الوقت من العلماء والزهاد، وله مناقب وكرامات كثيرة، ولكن قد جمع المقرئ أبو الحسن الشطنوفي المصري في أخبار الشيخ عبد القادر ومناقبه ثلاث مجلدات، وكَتَبَ فيها الطم والرم، وكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع.

وقد رأيتُ بعض هذا الكتاب، ولا يطيب على قلبي أن أعتمد على شيء مما فيه فأنقل منه إلا ما كان مشهوراً معروفاً من غير هذا الكتاب، وذلك لكثرة ما فيه من الرواية عن المجهولين، وفيه الشطح، والطامات، والدعاوى، والكلام الباطل، ما لا يحصى، ولا يليق نسبة مثل ذلك إلى الشيخ عبد القادر رحمه الله، ثم وجدت الكمال جعفر الأدفوني قد ذكر أن الشطنوفي نفسه كان متهماً فيما يحكيه في هذا الكتاب بعينه ".[1]

6 . تأثيره في المدعوين:

لقد كان للشيخ عبد القادر تأثير كبير في المدعوين أشاد به المعجبون واعترف به الخصوم وقد ذكر هذا التأثير الشيخ نفسه فقال : وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة، ثم تسامع الناس بي، وازدحم علي الخلق حتى صار يحضر مجلسي نحو من سبعين ألفا [2] . كما كان للشيخ تأثير كبير على نفوس المدعوين حتى أسلم بتأثيره كثير من اليهود والنصارى، وتاب على يديه كثير من العصاة، يقول الشيخ عمر الكيساني: لم تكن مجالس سيدنا الشيخ عبد القادر رضي الله

---

[1] للمزيد انظر ترجمة الشيخ في طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي، 1 / 291 وما بعدها.

[2] سير أعلام النبلاء: الذهبي ، 21 / 447

عنه تخلو ممن يسلم من اليهود والنصارى، ولا ممن يتوب من قطاع الطريق، وقاتلي النفس، وغير ذلك من الفساق، ولا ممن يرجع عن معتقد سيء.

ومما قاله في ذلك : أراد الله مني منفعة الخلق ، فقد أسلم على يدي أكثر من خمسمائة ، وتاب على يدي أكثر من مائة ألف، وهذا خير كثير. وكان الشيخ عبد القادر يقول: أتمنى أن أكون في الصحاري والبراري، كما كنت في الأول، لا أرى الخلق، ولا يرونني ثم يقول: أراد الله عز وجل مني منفعة الخلق فإنه قد أسلم على يدي أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يدي العيارين والمسالحة أكثر من مائة ألف، وهذا خير كثير[1].

وكان يحضر مجالسه في بعض الأحيان الخليفة والملوك والوزراء فيجلسون متأدبين خاشعين،[2] أما العلماء والفقهاء فلا يأتي عليهم حصر، وقد عد في بعض مجالسه أربعمائة محبرة لأربعمائة كاتب كانوا يسجلون عنه العلم.[3]

7 ـ منهجه في الدعوة:

كانت الفترة التي عاشها الشيخ عبد القادر في بغداد فترة حرجة إذ ظهر فيها التنافس جليا بين الخليفة والسلاطين من السلاجقة ، فقد كان هؤلاء السلاطين يرغبون في بسط نفوذهم، وفرض سيطرتهم على أملاك الدولة العباسية التي شاخت وعجزت وأصبحت غير قادرة على حماية ممتلكاتها، بل حتى على المحافظة على هيبة خلفائها.

وظهرت في الناس وثنية جديدة اتجهت همة الناس إلى الأمراء والحكام يلتمسون عندهم الرزق، ويرجون منهم النفع، ويدفعون بهم الضر، وأصبحت تلك هي عقيدة أكثر الناس، ونسوا أن الله هو الخالق الرازق، وأنه جل شأنه

---

1. نفس المصدر والصفحة .

2 ـ رجال الفكر والدعوة:223/1، نقلا عن تقنين الدعوة لمحمد السيد الوكيل ص365.

3. انظر البداية والنهاية والمنتظم وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب.

النافع الضار وأن جباه الحكام والسلاطين خاضعة لإرادته يعز من يشاء بعزته ويذل من يشاء بقدرته، يقول أبو الحسن الندوي رحمه الله : هكذا نشأت وثنية في عاصمة الإسلام، أصنامها الأمراء والموظفون، وهياكلها دور الحكومة واتجه الناس من عبادة الله وحده والتوكل عليه والسؤال منه إلى الالتجاء إلى الخلق والاعتماد عليهم، واستعطافهم وتملقهم [1].

كان الشيخ رحمه الله قد اتخذ لنفسه منهجا رشيدا يعالج به العلل، ويصلح به الخلل، ويعلن فيه قوة الحق وقدرته على التصدي للظلم، ويظهر فيه ضعف الأمراء والحكام أمام عزة الإسلام، ويحقر به الدنيا وأربابها في مواجهة سعادة الآخرة ونعيمها وينتشل به هؤلاء الهلكى ويأخذ بأيديهم إلى السعادة في الدنيا والفلاح في الآخرة .

وعزم الشيخ على القيام بهذا الدور الخطير، وهو يعلم أنه سيكون في واد والدنيا أمام عينيه تنطلق من واد غير هذا الوادي ولكنه عقد العزم وخطط للمهمة وتوكل على الله [2].

8 ـ الموضوعات الرئيسة في منهجه الدعوي:

لقد كان هذا المنهج يتلخص في جملة من العناصر التي تطرق لها الشيخ في حياته الدعوية ولعل من أهمها :

1 ـ الدعوة إلى العمل وذم البطالة.

2ـ الدعوة لنصرة السنة ومحاربة الابتداع.

3ـ نقد المنكرات الشائعة في المجتمع.

4ـ توجيه الناس ودعوتهم إلى الدين الصحيح.

---

[1] رجال الفكر والدعوة: أبو الحسن الندوي ص339.

[2] تقنين الدعوة : محمد السيد الوكيل ص 368.

1 ـ الدعوة إلى العمل وذم البطالة:

الإسلام يدعو إلى العمل والجد، ويطالب المسلمين ببذل الجهد للتوسع في العمل والإنتاج وبقدر دعوته إلى العمل وحث المسلمين عليه بقدر ما كان يعني على العاطلين الذين لا يزاولون مهنة ولا يمتهنون حرفة لأنه يعتبر هؤلاء العاطلين عالة على المجتمع لا يسهمون في تحضيره ولا أثر لهم في تقويمه.

وكانت البطالة قد انتشرت في عصر الشيخ الجيلاني وأصبح الناس يتملقون الخلفاء والسلاطين ليعيشوا على نوالهم، ويأكلون من فتات موائدهم، وأصبح المجتمع كله في حالة كساد وركود.

السلاطين يغالون في جمع الضرائب من الناس ويتعسفون في معاملتهم وأحلاسهم يعيثون في الأرض فسادا معتمدين على ما يعود عليهم من هؤلاء السلاطين الظلمة، فتكالب الناس على أبوابهم وتركوا العمل، فأذلوا أنفسهم، وأهانوا كرامتهم، ولم يكن لهم إلا جمع حطام الدنيا، والتمتع بزخارفها مهما كانت سبل الوصول إلى ذلك.

فقام الشيخ يدعو إلى العمل الجاد الذي يعود على الناس بالخير وعلى المجتمع بالرفاء والرخاء، وحذر من التوغل في طلب الدنيا، لأن ذلك يصرف الناس عن الآخرة ويلهيهم عن العبادة والطاعة، ودعا إلى أخذها برفق والاستماع بطيبتها في اتزان. لأن ذلك يحقق للنفس البشرية ميولها، ولا يتعارض مع طموحها.[1]

ونحن نلمح من خلال هذه الفترة من منهج الجيلاني في الدعوة إلى الله أنه لم يكن يؤمن بمبدأ المتصوفين الداعي إلى نبذ الدنيا والاتجاه بالكلية إلى طلب الآخرة لأنه كان يعلم أن هذا الطلب يتعارض مع الميول الفطرية في الإنسان المخلوق من الأرض مادة ومن السماء روحا ومعنى، ويعلم كذلك أن

---

[1]. تقنين الدعوة : محمد السيد الوكيل ص369.

لكلا الأمرين مطالب لابد من تحقيقها وإلا فسدت الحياة وفسد تبعا لفسادها نظام الحياة.

يقول في هذا المقام مخاطبا مريديه في المجلس الرابع والثلاثين من مجالسه الوعظية : " تقول أنا مستغن عن علم العلماء وتدعي العلم فأين العمل، ما تأثير هذه الدعوى...... إنما تتبين صحة دعواك للعلم بالعمل والإخلاص والصبر عند البلاء وأن لا تتغير ولا تجزع ولا تشكو إلى الخلق"[1]. ويقول في المجلس السادس والأربعين من مجالسه الدعوية : "اعبدوا الله عز وجل واستعينوا على عبادته بكسب الحلال إن الله عز وجل يحب عبدا مؤمنا مطيعا، آكلا من حلاله يحب من يأكل بكسبه ويبغض من يأكل بنفاقه "[2].

ويقول في المجلس الثاني عشر : " المؤمن يعمل لدنياه وآخرته، يعمل لدنياه بلغته بقدر ما يحتاج إليه " هذا هو منهج الشيخ الجيلاني لا تفريط في الآخرة ولا إفراط في الدنيا

2 ـ الدعوة لنصرة السنة ومحاربة الابتداع:

وبالرغم من نزعة الجيلاني الصوفية العميقة إلا أنه كان صوفيا من طراز نادر فقد كان يعتقد بأن التصوف إذ لم يكن خاضعا في شكله وموضوعه خضوعا تاما للشريعة فإنه يكون نوعا من الزندقة، وضربا من الباطل، ولهذا كان يقول رحمه الله:"إن انخرم فيك شيء من الحدود فاعلم أنك مفتون، وقد لعب بك الشيطان، وارجع إلى حكم الشرع، وألزمه ودع عنك الهوى، لأن كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي باطلة".[3]

---

[1]الفتح الرباني والفيض الرحماني:عبد الرحمن الجيلاني دار الريان للتراث الأهرام الجيزة ص 145

[2] المصدر السابق:ص 186.

[3]الطبقات الكبرى :الشعراني ص 131، نقلا عن رجال الفكر والدعوة ص 329 .

ويقول:"كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة فطِرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة وأدخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وسلم واجعله وزيرك ومعلمك، دع يده تزينك وتمشطك، وتعرضك عليه هو الحاكم بين الأرواح المربي للمريدين".[1]

وقد بلغت شطحات الصوفية في عصره حدا تخوف منه الغزالي من قبله، وحذر من الوقوع فيه حيث بالغ المتصوفون في دعواهم وأعلنوا وصولهم إلى الحقيقة وأنهم بلغوا الحد الذي تسقط معه الفرائض عمن بلغه وبرزت فكرة وحدة الوجود ودبت الفوضى الدينية في خلواتهم وزواياهم فتصدى الجيلاني رحمه الله لهذا التيار العنيف وصمد في وجه هذا الإلحاد المخيف وأعلن في شجاعة وثقة كفر من ترك الفرائض مهما كانت منزلته فقال:" ترك العبادات المفروضات زندقة وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال".[2]

ويقول آمرا المدعوين بالبعد عن الضلال والابتداع : " تنهاهم عن الضلال والابتداع واتباع الهوى وموافقة النفس، وتأمرهم باتباع كتاب الله عز وجل وسنة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم".[3]

ويصور لنا ما يعانيه الإسلام من أهل البدع والضلال فيقول: " يا قوم الإسلام يبكي ويستغيث يده في رأسه من هؤلاء الفجار من هؤلاء الفساق من هؤلاء أهل البدع والضلال، من الظلمة من اللابسين ثياب الزور من المدعين ما

[1]الفتح الرباني : مصدر سابق ص 179

[2]. الفتح الرباني : مصدر سابق ص 54.

[3]. المصدر السابق ص 54.

ليس فيهم، انظر إلى من تقدمك وإلى من كان معك آمرا ناهيا آكلا شاربا كأن لم يكونوا ما أقسى قلبك "[1]

3 ـ نقد مظاهر المنكر والفساد في المجتمع:

وكما خالف الجيلاني رحمه الله الصوفيين في هذا الاتجاه فإنه خالفهم كذلك في منهجهم وأساليبهم لقد كانت دعوى الصوفية إلى الانتباه إلى النفس، وترك الخلق دون توجيه أو إرشاد دعوى منافية لمبادئ الإسلام في نظر الشيخ ولهذا فإنه عارض بشدة مبدأهم القائل:"دع الخلق للخالق، أقام العباد فيما أراد" واتخذ لنفسه طريقة الرسل والمصلحين، فكان يعظ ويوجه، ويعلن الحرب على المخالفين، مهما كانت مكانتهم، وهذا هو الذي دعاه لأن ينتقد الأمراء والحكام لحيدتهم عن الحق، وينتقد العلماء لتكالبهم على المال والجاه، وتأييدهم للحكام بالحق وبالباطل.

وكان ممن انتقدهم من الخلفاء المقتفي لأمر الله، وذلك حين ولى القاضي يحي بن سعيد بن المظفر، وكان مشهورا بالظلم فلما حضر الخليفة صلاة الجمعة قال الشيخ الجيلاني على المنبر وعلى رؤوس الأشهاد "وليت على المسلمين أظلم الظالمين فما جوابك غدا عند رب العالمين، أرحم الراحمين" عندئذ ارتعد الخليفة وبكى، وعزل القاضي.[2]

وكذلك كان يوجه نقده اللاذع للعلماء الرسميين الذين لزموا أبواب الأمراء، وطوعوا الدين وأولوه بما يتفق مع هوى الحكام الظالمين فيقول في المجلس الحادي والخمسين :"هذا النفاق إلى متى؟ يا علماء يا زهاد؟ كم تنافقون الملوك والسلاطين حتى تأخذوا منهم حطام الدنيا شهواتها ولذاتها؟ وأنتم أكثر الملوك في هذا الزمن ظلمة وخونة في مال الله عز وجل وفي عباده

---

[1]. نفس المصدر : ص 371، 372.

[2] رجال الفكر والدعوة : مصدر سابق 1 / 345.

اللهم اكسر شوكة المنافقين واخذلهم أو تب عليهم واقمع الظلمة وطهر الأرض منهم أو أصلحهم"[1]

ثم يقول في المجلس الثاني والخمسين مخاطبا أحدهم:"أما تستحي؟ قد حملك حرصك على أنك تخدم الملوك، وتأكل الحرام، إلى متى تأكل الحرام وتخدم الملوك الذين تخدمهم؟ يزول ملكهم، وتتولى خدمة الحق عز وجل الذي لا يزول"، كن عاقلا واقنع باليسير من الدنيا حتى يأتيك الكثير من الآخرة"[2].

ولقد كان الشيخ الجيلاني رحمه الله يقيم منهجه في الدعوة إلى الله على مناصرة السنة ومحاربة البدعة فقد كان كما قال ابن رجب صاحب طبقات ذيل الحنابلة، وهو يترجم له "وكان متمسكا في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة، مبالغا في الرد على من خالفها، كما كان يقول عند وفاته، "أخبار الصفات تمر كما جاءت".[3]

وكانت الدعوة إلى الله على هذا النهج غايته، فلم يكن يرجو من ورائها جاها ولا سلطانا ولم يكن ينتظر من القيام بها إلا رضى الله عز وجل وفي ذلك يقول في المجلس التاسع والأربعين :"يا خلق الله، إني أطلب صلاحكم ومنفعتكم بالجملة أتمنى غلق أبواب النار وعدمها بالكلية وألا يدخلها أحد من خلق الله عز وجل وإنما تمنيت هذه الأمنية لاطلاعي على رحمة الله عز وجل وشفقته على خلقه قعودي لمصالح قلوبكم وتهذيبها لا لتغيير الكلام وتهذيبه لا

---

[1] الفتح الرباني : ص 216.

[2] المصدر السابق: ص 221.

[3]. انظر ترجمته وموقفه من أخبار الصفات في ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب

تهربوا من خشونة كلامي فما رباني إلا الخشن في دين الله عز وجل كلامي خشن وطعمي خشن فمن هرب مني ومن أمثالي لا يفلح".[1]

وكان للدعاة في تصويره سمات يتميزون بها، وعلامات تدل على إخلاصهم وحبهم لإخوانهم المسلمين، فكان يصفهم بقوله:" كيف لا يرحمون العصاة، وهم موضع الرحمة، مقام التوبة والاعتذار العارف خلقه من أخلاق الحق عز وجل فهو يجتهد في تخليص العاصي من يد الشيطان والنفس والهوى"[2] .

ويقول في موضع آخر عن صفات الدعاة وإخلاصهم للدعوة :" المؤمن صادق في نصحه لأخيه المؤمن يبين له أشياء تخفى عليه تفرق له بين الحسنات والسيئات يعرف ما له وما عليه، سبحان من ألقى في قلبي نصح الخلق وجعله أكبر همي، إني ناصح ولا أريد على ذلك جزاء "[3]

4 ـ دعوة الناس إلى الدين الصحيح:

لقد كان الشيخ رحمه الله مثابرا على دعوته وجهاده وتربية المدعوين وكان يشبه الداعية بالطبيب الذي يعالج المرضى ليصل بهم إلى بر السلامة والعافية فيقول:"العالم الرباني، وداعية الحق طبيب يأتيه المرضى من كل نوع فيداويهم مما فيهم من مادة الداء ويريهم طريق الشفاء ويتوجه بهم إلى الله تعالى".

ولقد كان رحمه الله في دعوته يلمس القلوب برفق ويوجهها إلى بارئها في لطف، محاولا أن يسلخها عن كل ما تعلقت به من ماديات الحياة وزينتها ليربطها بخالقها ومبدعها ويمثل كل متعلقات القلب آلهة ومتى تعلق بها القلب

---

[1]. الفتح الرباني ص: 206.

[2]. الفتح الرباني والفيض الرحماني: ص 224.

[3]. المصدر السابق : ص 39.

أشرك بالله فيقول في المجلس الأربعون من مجالسه الوعظية: " الفقه في الدين سبب لمعرفة النفس من عرف ربه ـ عز وجل ـ عرف الأشياء كلها، به تصح له العبودية والعتق من عبودية غيره" [1].

ويقول في المجلس الثالث والأربعون مخاطبا مدعويه ومريديه بقوله: " يا غلام إذا أردت الفلاح فخالف نفسك في موافقة ربك ـ عز وجل ـ، ووافقها في طاعته وخالفها في معصيته، نفسك حجابك عن معرفة الخلق والخلق حجابك عن معرفة الخالق ـ عز وجل ـ "[2].

كما كان رحمه الله يستعمل الأسلوب المنطقي المعتمد على العقل وذلك لأن هذا الأسلوب هو الذي يستطيع أن يؤثر في ذوي العقول ويضع بين أيديهم الأدلة الموجبة للقبول فلا شك أن سلطان العقل أنفذ وأكثر ثباتا في القلوب وأطول استقرارا في النفوس فيقول:"انظر إلى من ينظر إليك وأقبل إلى من أقبل عليك وأحبب من يحبك واستجب إلى من يدعوك إليه وأعط يدك من يثبتك من سقطتك ويخرجك من ظلمات جهلك وينجيك من نزعات نفسك، ويغسلك من أنجاسك، وينظفك من أوساخك ويخلصك من جيفتك ومن هممك الردية، ونفسك الأمارة بالسوء وأقرانك الضالين المضلين؛ شياطينك وهواك وأخلائك الجهال".[3]

كان يستعمل أسلوب الإغراء، حين يذكر الناس بأن الله يغار عليهم وأنه يريدهم لهذا فهو يصرفهم عن غيره جل شأنه ويبتليهم حتى يفرغهم لعبادته وحبه للمواجع كل ما يحصل لهم من البلاء إنما ليكون الواحد منهم أثيرا عند ربه لا يشركه غيره فيقول رحمه الله:"ما أكثر ما تقول: كل من أحبه لا تدوم

---

[1] _الفتح الرباني والفيض الرحماني: ص162.

[2] _المصدر السابق : ص 173.

[3]. فتوح الغيب : الجيلاني، المقالة الثانية والستون، وانظر رجال الدعوة 1 / 340.

صحبتي بحال بيننا إما بالغيبة أو الموت، أو العداوة وأنواع الأهوال بالتلف والفوات فيقال لك: أما تعلم يا محبوب الحق المغنى به المنظور إليه، المغار له وعليه أن الله غيور خلقك له وتروم أن تكون لغيره؟

أما سمعت قوله عز وجل:(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) المائدة 54. وقوله:(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الذاريات 56.

بهذا الأسلوب الأخاذ وبمعالجة النفوس بمثل هذه الكلمات المؤثرة استطاع الجيلاني رحمه الله أن يؤسس مدرسة ذات منهج رشيد انجذبت إليه القلوب وتأثرت به النفوس وقد بدا أثر هذا المنهج واضحا في عدد ضخم من الناس لا يحصيهم عدد إلا الله وصلحت به نفوسهم، وانقادوا له طائعين، وحملوا الأمانة بعد الشيخ الجيلاني بإخلاص، وساروا بها في الآفاق، لا يوليهم شيء عن غايتهم، ولا يردهم راد عن هدفهم، وقد كان الشيخ الجيلاني يتفقدهم، ويقوم بنفسه على تربيتهم وتهذيبهم، كما كان يجيز للدعوة منهم من يراه قادرا على تبليغها.[1]

لقد وجد هذا الداعية المصلح في زمنه المطلوب حيث تسلم الزعامة الدينية وعاش نحو قرن فردا فريدا في الدعوة إلى الله فالتف حوله الأتباع والمريدون فأثر فيهم تأثيرا لم يؤثر مثله عالم أو مصلح أو داعية من مدة طويلة.

الخاتمة:

هكذا كان الشيخ الجيلاني في دعوته ومنهجه جامعا بين التصوف والعلم والعمل، فقد حاول إصلاح المجتمع وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، رغم كل الصعوبات والعراقيل التي واجهته من مريديه مرة ومن مناوئيه مرة أخرى ، فكان يحترق قلبه على ذلك.

---

[1]. تقنين الدعوة : محمد السيد الوكيل ، ص 374 .

ورغم ذلك فقد استطاع الشيخ بما أوتي من علم غزير وغيرة على دين الله عز وجل، وحس مرهف وحرص على صلاح هذه الأمة وإصلاحها، وشعور بالمسؤولية والأمانة، أن يبلغ رسالة الإسلام فكانت تفيض من لسانه وقلبه كلمات مؤثرة هي آية في الإخلاص والصدق والحمية الدينية .

تلقفها أعلام الدعوة وأئمة التربية من تلاميذه المخلصين في القرون التي تلته ، فكان لهم دور كبير في المحافظة على روح الإسلام وهديه، ونشره في الأصقاع البعيدة التي استعصت على الجيوش المدججة أن تخضعها لحكم المسلمين.

وهكذا استطاع الشيخ رحمة الله عليه أن يستمر في دعوته وجهاده أكثر من نصف قرن ويصمد في التبليغ في بيئة شاعت فيها الكثير من المنكرات، إضافة إلى الاستبداد السياسي، وما كان يحصل له هذا النفوذ والقبول إلا لإخلاصه في عمله الدعوي وزهده فيما كان يحرص عليه غيره من علماء البلاط وعامة المدعوين، بل وحرصه على هداية الخلق أجمعين إلى الإسلام الحنيف دين الله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

والله الموفق